التدوين في الاسلام

للاستاذ محمد كرد علي

وزير المعارف السورية ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

من ادق المسائل معرفة اوائل الاشياء والمحدثات من الامور . فقد رأينا الغربيين في عهدنا اختلفوا في اول من اخترع الكهرباء ووضع الخطوط الحديدية وعمد الى الطيران. وهذه من الاعمال الحديثة العهد فما بالك بأمور اتت عليها قرون كمسألة التدوين في الاسلام. كان اول تدوين كتب القرآن في المصاحف في عهد الخليفة الاول وكما كان يكثر عدد من يكتبون من المسلمين في الاقطار كان عدد من يدونون يزيد كثيراً . وقد تبين مؤخراً ان ما نقلته في مجلة المقتطف (المجلد الثامن والعشرون ١٩٠٣ — ١٣٢١ ص ٦٦٠) من ان اول من صنف عبد الملك بن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٠ او ابو النصر سعيد بن أبي عروبة (١٥٦) او ربيع بن صبيح (١٦٠) او غيرهم من اهل القرن الثاني كان يراد به من افردوا المسائل بالتأليف والا فان التدوين وقيد الفوائد الادبية والدينية كان ما حدث في القرن الاول . ولو لم يكن هناك كتب مدونة ما كان خالد بن يزيد حكيم الأمويين يحرص على نقل بعض العلوم من السريانية واليونانية الى العربية على ما اثبت ذلك الثقات المحققون

ولقد ثبت على ما روى صاحب الفهرست ان عبيد بن شرية الجرهمي وفد على معاوية ابن ابي سفيان في الشام فسأله عن اخبار الاقدمين وملوك العرب والعجم فأجابه الى ما امر. فأمر معاوية ان يدوّن وينسب الى عبيد . ولعبيد عدة كتب ذكرت في الفهرست . وبقي عبيد حيًّا الى ايام عبد الملك بن مروان فثبت بذلك ان التدوين حدث في اوائل القرن الاول اي في عصر الصحابة الكرام على ما في (توجيه النظر) للعلامة طاهر الجزائري. فقد ذكر بعض الحفاظ ان زيد بن ثابت الف كتاباً في علم الفرائض وذكر البخاري ان عبد الله بن عمر كان يكتب الحديث وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي . وقد ذكر المؤرخون انه وجدت في خزانة الانبار عدة كتب بخطوط بعض الصحابة والتابعين بل وجد كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم من اهل مكة كتب قبل الاسلام

اذا عرفت هذا فقد زال الشك الذي تطرق الى بعض ما دون من أخبار الجاهلية وشعرهم لأنا رأينا القوم قد عُنوا بالتدوين لاول القيام بالدعوة الاسلامية بقدر ما ساعدهم عدد الكاتبين . وباثبات هذه القضية على ما تجلت لنا ، يزول العجب الذي كان أدرك مثل الاستاذ منشيء المقتطف رحمه الله (م ٢٨ — ص ٦٦٣) من توقف العرب عن تدوين أخبارهم الى ما بعد الهجرة بسنين كثيرة قال مع ان مدائن مصر والشام والعراق وسائر بلاد فارس التي فتحوها في القرن الاول كانت حافلة بالكتب والمكاتب وان صناعة الكتابة كانت معروفة عندهم . قال وأعجب منه ان يكتبوا في المئة الثانية ما عجز اجدادهم في المئة الاولى ولا يخطئوا ونحن لا نستطيع اليوم ان نروي خبراً سمعناه في العام الماضي او لصف حادثة شاهدناها منذ عامين . اه

كان هذا الرأي غالباً على بعض الباحثين ولكن الايام اثبتت نقيضه بما وقع لعبيد ابن شرية الجرهمي مع معاوية بن ابي سفيان . ومن غرائب الحوادث ان ما رواه الراوون عن هذا الراوية قد ظفر الباحثون بنصه مدوناً وقد نشره السيد كرنكو من علماء المشرقيات في انكلترا باسم اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وطبعه في حيدر آباد الدكن في الهند . ومما جاء فيه وهو ما يؤيد رواية ابن النديم في الفهرست ان معاوية امر (ص ٣١٤) كتّابه ان يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه مع معاوية . وقد ذكر عبيد في حضرة الخليفة اخبار عاد وثمود وجرهم وخروجهم من اليمن الى الحرم وغير ذلك وكلها مشفوعة بأشعارهم . وكان معاوية يطلب الى راويته المرة بعد المرة ان يسمعه ما قيل في كل حادثة من الاشعار ومما قاله له : (ص ٣٥٢) «وقد علمت أن الشعر ديوان العرب والدليل على اخبارها وأنسابها والحاكم بينهم في الجاهلية وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول أن من الشعر لحكماً» وقد كان معاوية معجباً جداً بما سمع من عبيد بن شرية وقال له مرة : « خليق يا عبيد أن يكون هكذا فزادك الله علماً وفهماً وزادنا بك رغبة وعليك حرصاً فأنا لا نحصي ايادك فزادك الله فضلاً الى فضل وهدى الى هدى ...

ويقال في الجملة ان كتاب اخبار عبيد بن شرية الجرهمي في اخبار اليمن وهو من اوائل ما دوّن في الاسلام كان منه حل الاشكال الذي استعصى على كثير من الباحثين وبه ثبت ان المسلمين دونوا في زمن اسبق بكثير مما دون المصنفون ولذلك حفظت السنة وأخبار الجاهلية وأشعارها فقد ذكر الجلال السيوطي في « تدريب الراوي » في فصل يستحب للمحدث العارف عقد مجلس لاملاء الحديث قال انه اعلى مراتب الرواية — رواية ابن عدي والبيهقي

في المدخل من طريقه انبأنا عبد الصمد بن عبد الله ومحمد بن بشر الصفتيان قالا حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابو الخطاب معروف الخياط قال : رأيت واثلة بن الاسقع رضي الله تعالى عنه يملي على الناس الاحاديث وهم يكتبونها بين يديه (ويتخذ مستملياً محصلاً مثيقظاً يبلغ عنه اذا كثر الجمع على عادة الحفاظ) في ذلك كما روى عن مالك وشعبة ووكيع وخلائق وقد روى ابو داود والنسائي من حديث رافع بن عمر قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء وعليّ يعبر عنه وفي الصحيح عن بن حمزة قال : كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس فان كثر الجمع بحيث لا يكفي مستمل اتخذ مستملين فأكثر الى آخر ما قال

وواثلة بن الاسقع بن عبد العزّى من اهل الصُّفة وسمع على ما في طبقات ابن سعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قبض رسول الله خرج الى الشام ومات سنة ثلاث (وقيل خمس) وثمانين وهو ابن ثمان وتسعين سنة وقيل مئة وخمس سنين وكان ينزل بيت المقدس ومات بها ويشهد المغازي فيمر بدمشق وحمص . والمعروف ان الرسول عليه السلام نهى أن يكتب عنه اولاً غير القرآن ونهى عن كتابة الحديث لئلا يختلط بالقرآن . وفي مفتاح السنة للاستاذ الحولي وهذا لا ينافي جواز كتابته اذا امن اللبس وبذلك يحصل الجمع بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه (ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده) وقوله عام الفتح (اكتبوا لابي شاه) واذنه لعبد الله بن عمرو بتقييد العلم . وأبو شاه كان من الصحابة قال : اكتبوا لي فقال النبي : اكتبوا لابي شاه، يريد خطبته فنيه دليل على كتابة العلم ونسخ النهي عن كتابة الحديث . وصح عن عبد الله ابن عمر انه كان يكتب حديثه وكان مما كتبه صحيفة تسمى الصادقة وهي التي رواها حفيده عمرو بن شعيب عن ابيه عنه ، وهي من اصح الاحاديث ، وكتب رسول الله كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره ، وعن هشام بن عروة عن ابيه انه احترقت كتبه يوم الحرّة في خلافة يزيد وكان يقول : « لو ان عندي كتبي بأهلي ومالي »

وبعد ان اوردنا هذه الروايات التي لا سبيل الى تزييفها لورودها من طريق مأمونة مضمونة وساعدنا على تأييدها طبع كتاب اخبار اليمن لعبيد بن شرية ثبت كل الثبوت ان المسلمين باكروا التدوين اكثر مما ظن الظانون ، وان دعوى كون اشعار الجاهلية مصنوعة قد ردّت بشهادات لا يسع المناكين الاّ اعتقاد صحتها والله اعلم